تقديم

عندما بَحَث اللغويون المحدَثون عن كلمة تدل على معنى « السينيما » فى اللغات الأجنبية ، اهتدوْا إلى كلمة « خيَّالة » . ولاشك فى أنهم نظروا مَلِيًا فى أداة هذا الفن الذى يَصنع من الخيال حقيقة أو ما يُشبه الحقيقة ، ويتوهّم معه المرء أن الأفكار والحكايات والروايات والأساطير تتمثل واقعا مُشاهَدا منظورا مسموعا . ومع الأيام، تراجعت كلمة « الخيالة » وفرضَتْ الكلمة الأجنبية نفسها على الألسنة والأقلام (Cinéma) .

ومن حق العالِم الموقر الشيخ محمد رشيد رضا علينا أن نذْكره فى هذا المقام . فقد كان – فى مطلع القرن العشرين – شغوفا بتعريب بعض الكلمات الأجنبية التى كانت متداوَلة على ألسنة الناس فى مصر وعدد من البلاد العربية ، وفَدَتْ وانتشرتْ بسبب الاحتلال والاستعمار بوجهيه الكريهين الإنجليزى والفرنسى ، أو بسبب «المتفرنجين» من العرب الذين حاولوا الانسلاخ من تراثهم وعروبتهم ، طمعا فى مكسب ، أو لهفة على منصب ، أو رضوخا لمأْرب ، أو إذعانا لسلطان . فكان من مآثر الشيخ « الرشيد » رضا (رحمه الله) أنه بادر بمحاولة لقمع ادّعاء الواهمين المبطلين بأن اللغة العربية قاحلة قاصرة عاجزة عن استيعاب الألفاظ والمصطلحات العلمية والابتكارية المستوردة من أوروبا والشرق البعيد والغرب ، فأفْرد فى مجلته «المنار » بابًا للتعريب والاشتقاق (ابتداء من سنة ١٩١٠) وضع فيه كلمة «السيارة» مقابل الأتوموبيل ، و « الحاكى » بدلا من الفونوغراف ، و « المِسَـرَّة »

بمعنى التليفون، و«المِذْياع » أى الراديو ، و « التصوير الشمسى » بديلا عن الفوتوغرافيا ، و « الخيَّالة » تعريبا للسينيماتوغرافيا .. وهكذا . ثم نشطت المجامع اللغوية فى المنطقة العربية ، وأفاضت فى التعريب والتصويب ، وأقرَّتْ بعض المصطلحات المتداوَلة .

كان التصوير الضوئى (أو الشمسى) هو الأب الشرعى للسينيما . فإن تثبيت الصورة – أو المنظر – على لوحة أو ورقة (فى أواسط القرن التاسع عشر) ، كانت البداية لعصر حافل بالمرئيات ، أحْدث ثورة فى فن الرسم (التصوير الزيتى) الذى راح يبحث عن أساليب جديدة فى التعبير ، بعد أن حققتْ الصورة الضوئية (الفوتوغرافية) بضغطة واحدة على آلة التصوير (الكاميرا) صيغة مثالية فى تسجيل الواقع بكل تفاصيله ومحتواه ، وخاصة بعد ابتكار التصوير الملوَّن .

ثم جاء الشريط أو الفيلم السينيمائى معتمدا على خداع بصرى مصْدره : أن العين البشرية لا تلمح الفرق الزمنى إذا كان أقل من $\frac{1}{10}$ ثانية بين الصور المتتابعة بسرعة معينة أمام المشاهِد فى قاعة مظلمة . فتحركتْ الصورة رغْم ثباتها : فالناس يمشون ، والرياضيون يقفزون ، والجنود يتعاركون ، والسيارات تجرى ، والقطارات تُسرع ، ومياه الأنهار تتدفق .. فلما أُضيف الصوت إلى الصورة (فى أواخر العشرينيات من القرن العشرين) اكتمل تجسيد الخيال أو الإيهام ، وصارت السينيما – أو الفن السابع – واقعًا ناميا مزدهرا ، ومؤثرا فى حياة الناس .

تغيرت النظرة إلى العالم ، بل إلى الكون بأبعاده وآفاقه وإيحاءاته . وتقاربت المسافات، والقارات ، والبلدان ، والشعوب . ولأول مرة فى التاريخ تنطبع صور ، ومشاهد ، وألوان، ومواقف ، وشخصيات فى أذهان وذاكرة ملايين الناس من مختلف الأمم والشعوب ، فى فترات زمنية قصيرة ؛ فلما أقبل التليفزيون فى أواسط القرن العشرين ، تلاشى البعد الزمنى فى هذا الانطباع والاختزان فى الذاكرة ، وصار معروفا ومألوفا أن «يَرى » عدة ملايين – أو بلايين – من سكان الأرض فى وقت

واحد شخصا معينا ، أو منظرا محددا ، أو حَدَثا آنيا ، ويسمعون أيضا صوته أو كلامه ، ويرقبون معا أفعاله وإنجازاته .

لم تَقْتصر مستحدثات السينيما على تسجيل الواقع وعَرْضه ، وإنما نجحت نجاحا بالغا مُبهرا فى تأكيد قُدراتها كأداة أو وسيلة تعبير ، ذات لغة خاصة ، وتعبيرات مميزة ، وإيحاءات متشعبة ، ومُفردات أو عناصر منوعة من التشخيص ، والتتابع ، والإضاءة، والموسيقى ، والمؤثرات ، والحيل ، وتنسيق المناظر (الديكور)، وتزيين الوجوه وتشكيل الملامح (الماكياج)، والملابس ، وحجم اللقطات وزواياها .. والمُخرج (أو قائد الفريق : المايسترو) هو المبدع المسئول عن ذلك كله ، بمساعدة مجموعة كبيرة من الفنانين والفنيين والخبراء والمعاونين ، فى « صناعة » كانت تتكلف – للفيلم الواحد – عشرات ، ثم مئات ، ثم آلاف ، والآن ملايين الجنيهات أو الفرنكات أو الدولارات .. وتنتهى فى الأسواق بمكاسب ضخمة وشهرة واسعة ، أو خسائر كبيرة وانتقادات لاذعة .

ليس مبالغة أن السينيما (أى الخيَّالة) تحولت إلى « عالم » طريف ممتع متعدد الجوانب ، متنامى الأبعاد ، متزايد المقاصد والغايات ، وبالتالى تضاعفَتْ إسهاماتها الثقافية ، والعلمية ، والإعلامية ، والاجتماعية ، والدعائية ، والترويحية ، للكبار وللصغار؛ فأصبحتْ وأمستْ – بإيجابياتها وسلبياتها – جزءا من الحياة اليومية فى معظم بلاد العالم .

وهذا الكتاب ..

سياحة حول هذا « العالم » السينيمائى فى شرق وغرب ، وداخل رموزه وكنوزه ، وصروحه وآثاره الباقيات الراسخات . نقصد بذلك : بعضا من معالم فن السينيما – وقد بلغ من العمر والسنوات مائة – ويتوقف التجوال عند طائفة من رواده العمالقة الأفذاذ، وفيهم من يمثلون روافد نابضة متعاقبة من الرجال والنساء ، الذين رحلوا عن دنيانا وتركوا للأجيال وللتاريخ أعمالا تَشْهد ، وأقوالا

تُرَدَّد ، ومواقف تُذْكر ، وطرائف تُؤْثَر ، وحكايات خلف الكاميرا تُفصح عن كثير ، وهى أحيانا قد تُثير .. وربما تدعو إلى مقارنة بين جيل وجيل ، بين عصر الرواد الجادين المبتكرين ، وعصر التابعين المترْفين المدلَّلين ..

ولئن اقتصرت الفترة التى يتناولها هذا الكتاب على بواكير العمل السينيمائى وطرائفه وغرائبه وإبداعاته ، فإن هذا الفن نما وتطور وأجاد وتعثَّر .. وفى وطننا العربى – من الخليج إلى المحيط – أثمر نهضة فنية متسارعة ؛ التنوع فيها واضح والتنافس محبوب مرغوب ؛ ففى سوريا ولبنان وفلسطين والأردن والعراق مجددون مبدعون ، وفى دول الجزيرة العربية محافظون مجتهدون ، وفى المغرب العربى سبَّاقون مبتكرون .. ومصر واسطة العقد تفاخر بالجميع ، وتمضى معهم فى موكب الفن الجميل الجليل ..،

فؤاد شاكر

القاهرة : نوفمبر ١٩٩٩